**المحاضرة 05**

**الاستشراق والشعر الجاهلي**

**مدخل:**

بدأ الأوروبيون في الاهتمام بعلوم المشرق وثقافته منذ القرن العاشر للميلاد، وذلك مع ظهور النهضة الأوروبية آنذاك، لتزدهر بعد ذلك حركة الاستشراق في القرن التاسع عشر.

على الرغم من أن العرب القدماء نقادا أو رواة أو اخباريين قد تحرّوا ومحّصوا ووثّقوا الشعر الجاهلي وحرصوا على حصحصته من النّحل والإضافات إلا أنّ كثيرا من المستشرقين الأوروبيين الذين اهتموا بدراسته تناولوه من باب التشكيك في صحته وليس من باب الدراسة والتنقيح، متجاهلين بذلك كل ما قام به الأصمعي، المفضل، الجاحظ وغيرهم.

فراح بعضهم يطعن في صحة الشعر الجاهلي من أساسه، وبعضهم يشكك فيه، إلا أن بعض المستشرقين المنصفين ممن يريدون دراسة هذه المرحلة بعقلانية دون تحيّز ولا خلفيات، وفي ذلك يقول الدكتور ظافر الشهري أستاذ بجامعة الشيخ فيصل بالسعودية موضحا سبب اهتمام المستشرقين بدراسة الشعر الجاهلي: " إلا أننا يجب أن نضع العاطفة جانبا وألا نصادر جهود هؤلاء المستشرقين بحجة أهداف سياسية واستعمارية، وألا نقحم الدين في كل أعمالهم العلمية، فالواقع يؤكد أن كثيرا من الدارسين تخلوا عن التبعية بجميع أشكالها وأهدافها، وعملوا بصدق للبحث العلمي وغاصوا في كوامن التراث العربي بعيدا عن كل ما يتعارض مع مهنية البحث العلمي، وخلق الباحث الصادق ".

وعطفا على ما سبق فإننا نستطيع تقسيم أعمال المستشرقين إلى صنفين: الأول يدمج بحثه العلمي مع أهداف غير ظاهرة، وآخر يتنصل من كل أهوائه ويبحث بموضوعية تامة وصدق لا متناه من أجل البحث العلمي وفقط.

وعليه فسنقوم بالتطرق إلى أعمال بعض المستشرقين ونظرياتهم وفق تراتبية زمنية لمنجزاتهم البحثية.

**تيودور نولدكه**

يُعدّ نولدكه أبرز المستشرقين الألمان، أتقن العربية وتحصل على شهادة الدكتوراه سنة 1856 عن تاريخ القرآن الكريم.

كان كتابه "في سبيل فهم الشعر الجاهلي" أول الدراسات التي سلّطت الضوء على قضية الانتحال والشك، متطرّقا فيه إلى لنقاط عدّة منها:

1. بدايات الشعر الجاهلي وكيفية وصوله إلى العصر العباسي، وهل تمّ حفظه كما هو أم أنَّ طول المدّة بين العصرين أدّى إلى نسيان أو خلط أبيات بعض القصائد.

ومن هنا قال نولدكه: أن من المغالاة أن نطالب راويا ما للشّعر أن يحافظ على انتظام آلاف القصائد دون النسيان أو الاخلال ببعضها.

1. ومن القضايا التي أثارها أيضا هو غياب ذكر أسماء الآلهة التي عرفت في ذلك العصر مفسّرًا ذلك بتعمّد تحريفها من طرف المحدّثين واستبدالها ب " الرحمن" " اللّه " كونها تحافظ على الوزن العروضي، وقد ردّ عليه الكثيرون بالجهل الفاضح كون الجاهليين على دراية بوجود الله عزَّ وجل ّولكنّهم كانوا يتبرّكون ويتقربون له بعبادتهم للأصنام واعتبارهم إيّاها وسيطا بينهم وبين الله عزّ وجلّ.

لكن نولدكه وبعد الدراسات المطولّة للشعر الجاهلي اعترف بقوته وروعتة، بالرغم من كلّ ما تعرّض له من اضطراب، مقارنا إيّاه بأناشيد هوميروس، ليعتبر بذلك نولدكه أشهر وأكثر المستشرقين إنصافا وتحكيمًا للعقل في دراسته لكلّ ما يتعلق بالشعر الجاهليّ.

**فيلهم أَلوارد**

اطّلع على دراسات نولدكه، من مؤلفاته " العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليّين"، ركز في كتاباته على فكرة أن القصائد تعرضت لأغلاط مقصودة أو لتزييفات معمّدة، بانيا شكّه على ملاحظات حول اختلاط الروايات للقصيدة الواحدة.

ويعتبر أن الشعر الجاهليّ هو الثروة اللغوية السليمة الصافية لذلك استعمل في تفسير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لأنهما يشتركان في نفس اللهجة القرشية.

كما تطرق إلى عملية النقل وأن فكرة الصاحب الذي يتبع الشاعر أينما حلّ وارتحل هي حجّة طازجة لكل المشككين، معتبرا ذلك سببا في ضياع الكثير من الأخبار والمرويات، بسبب مقتل معظمهم في معارك الجهاد إبان صدر الإسلام من جهة، ونسيانهم وخلطهم للأبيات من جهة ثانية.

تطرق أَلوارد إلى قضية الرواة خاصة حمّاد الراوية ومهارته الشعرية التي سمحت له حسب روايته بخداع الشعراء، مستدلا بحكايته مع المفضل الضبي وأنه أضاف ثلاثة أبيات لقصيدة زهير بن أبي سلمى التي تبدأ بقوله ( دع ذا وعد القول في هرم ) واعترف للمهدي بعد أن أقسم عليه أنه هو قائل الأبيات الثلاثة.

وأنّه كان رغم كل ما نقله لنا غير موثوق فيه، لأنه كان مثلا ينشد أكثر من سبعمائة قصيدة كلها تبدأ بـ: بانت سعاد

كما تحدثّ أيضا عن " خلف الأحمر " وأنّه كان أشدَّ خطورةً من حيث الإساءة للشعرِ، وهو صاحب كتاب لامية العرب الحقيقيّ وأنه نسبها إلى الشنفرى كما فعل مع الكثير من القصائد حتى يذيع صيتها.

أَلوارد لم يكتف بالتشكيك في الرواة بل وصل لقضية هي الأعظم " المعلقات " زاعمًا أن أصل تسميتها بذلك هو أنها قطعة علّقت بالأخرى، وإنكاره لوجود سوق عكاظ وأن معظم القصائد آنذاك مشكوك فيها وذلك لعدة أسباب منها:

- الكيفية التي تمَّ نقل الشعر الجاهلي وهي التواتر بالحفظ وأنها سبب في تضييع وخلط معظم القصائد.

- تزييف الرواة، ليعترف في النهاية أن محدودية الوسائل المتاحة لمعالجة القصيدة القديمة معالجةً نقدية شاملة لكنها في الوقت ذاته غير عارية من الأهمية، ليقسم القصائد القديمة إلى ثلاث مجموعات: صحيح وغير صحيح ومشكوك فيه.

***رينولد نيكلسون***

ألّف نيكلسون كتابه (تاريخ العرب الأدبي) سنة 1907م وتناول فيه قضية الشعر المنحول عند حديثه عن رواية الشعر الجاهلي حيث يقول: أنّ الشعر الجاهلي حفظ عن طريق الرواية الشفوية، لأن الأشعار كانت تعتبر مصدر فخر وتمجيد وهجاء للأعداء، لذلك كانت تنشد باستمرار ممّا ساهم في تواترها وحفظها بسهولة، وحفاظها على شكلها الأصلي ولو على وجه التقريب.

ومن جهة أخرى كانت مهمّة الرواة أو لنَقُل وظيفتهم هي حفظ الأشعار، فقد كان الخلفاء والولاة يجزلون لهم الهبات باعتبارهم ذاكرة وذخيرة لأهم مراحل الشعر العربي، وهكذا استمرت الرواية الشفوية حتى نهاية القرن الأول الهجري حين بدأ التدوين.

ومن أهم القضايا التي تطرّق إليها نيكلسون في كتابه السابق نظرة الإسلام للشعر الجاهلي، فمع مجيئه أصبحت الأكثرية الساحقة من المسلمين لا يهتمون به لأنه كان في نظرهم يمثّل روح الوثنية الضالة، وأنّ حاجتهم للغة موازية تساعدهم في تفسير القرآن والحديث هو السبب الوحيد الذي أدّى بهم للرجوع إليه.

ويقف نيكلسون في كتابه أيضا عند قضية الرواة وبالخصوص حماد الرواية وخلف الأحمر ويعتبرهما نموذجين للرواة الكذّابين الذين يجب الحذر من مروياتهم.

أمّا اسهامات نيكلسون في التراث القديم فقد كانت في ميادين التصوف والأدب العبّاسي، فله دراسة عن شعر المتنبي (مجلة الجمعية الملكية الآسيوية 1915) وابن الفارض (مجلة التاريخ الهندي 1924).

***لايل\_ سير تشارلز جيمس لايل:***

ارتكزت معظم أعماله على صحة الشعر الجاهلي وروايته، وذلك عبر دراسته لعدّة دواوين منها (ديوان عبيدة بن الأبرص، ديوان عامر بن الطفيل).

يرى لايل أن عملية نقل الشعر الجاهلي عن طريق الحفظ الشفهي بين أبناء القبيلة وتواترها عبر أبنائها كان من باب الفخر، وحتّى يحفظوا تراثهم ومفاخرهم للأجيال القادمة كونها أرشيفا لحروبهم وانتصاراتهم.

لايل كان من أهم المدافعين عن صحّة الشعر الجاهلي ويرد على زعم بعض المستشرقين بأن القصائد قد نحلت في عصر متأخر، رافضا الفكرة جملة وتفصيلا مبرهنا على ذلك بالاختلاف الواضح بين ظروف الفترتين من حيث اللغة المستعملة والبيئة، وأنهما عالمان شديدا الاختلاف حيث يقول: (ومن إفراط الخيال أن تظن أن معظم القصائد المنسوبة إليهم منحولة من عصر متأخر، ومن تأليف شعراء عاشوا تحت ظروف مغايرة تمام المغايرة، وفي عالم شديد الاختلاف عن أيام الحياة البدوية في الصحراء العربية).

ويسوق لايل سببا آخر يثبت فيه صحة الشعر الجاهلي وأنه غير منحول، وهو أن القصائد الجاهلية كانت ملأى بألفاظ غريبة على العلماء الذين كانوا أول من عرض هذه القصائد على محك النقد فقد كانت تنتمي لمرحلة قديمة في اللغة وأنها غير مستعملة في الزمن الذي كتبت فيه.

أسهم لايل في نشر التراث القديم ودراسته بشكل دقيق، وذلك من خلال ( شرح المعلقات السبع 1881-1884) وتراجم شعراء العرب القدماء والشعر الجاهلي (لندن 1885).

***صموئيل مرجيليوث***

نشر مرجيليوث بحثه (أصول الشعر العربي) سنة 1925، وكانت الأقوال المتضاربة بين الرواة حماد وخلف الأحمر مياهه العكرة التي يصطاد فيها. ومن آرائه الزّائفة حديثه في كتابه "محمد وظهور الإسلام" عن الزامية اخضاع القرآن الكريم للنقد بزعم أنه يحمل شبها كبيرا من لغة الشعر الجاهليّ، وبقيت فكرة الانتحال شغله الشاغل، فمارس الكتابة فيها، وواصل أبحاثه في هذا الميدان، فكتب سنة 1906-1907 في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بحثا عن (الشعر المحمول على السموأل) وفي سنة 1911 كتب في المجلة نفسها مقالا عن (أصل الشعر العربي).

وقد استند في حصيلته البحثية على أدلة داخلية وخارجية نوجزها كالتالي:

**الأدلة الدّاخلية:**

1- إنكاره لوجود جماعة رواة مهمتهم فقط حفظ الشعر.

2- أن الإسلام يجبّ ما قبله، وأن القرآن ذمَّ الشعراء ففكرة تدوينه بعد ظهوره مستبعدة، و أنَّ ما في هذا الشعر الجاهلي لا يمثل الجاهليين الوثنيين ولا من تنصروا منهم، فأصحابه مسلمون لا يعرفون التثليث المسيحي ولا الآهلة المتعددة، إنما يعرفون التوحيد والقصص القرآني وما فيه من كلمات دينية إسلامية مثل الحياة الدنيا، ويوم القيامة، والحساب، وصفات اللّه‏ سبحانه وتعالى.

وينتقل من ذلك إلى اللغة فيلاحظ أنها لغة ذات وحدة ظاهرة وهي نفس لغة القرآن الكريم التي أشاعها في العرب، ويقول: ولو أن هذا الشعر كان صحيحاً لمثل لنا لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية، كما مثل لنا الاختلافات بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية في الجنوب.

ثم ينتقل إلى موضوعات القصائد، ولعله يريد أن يستنتج منه أن اتفاق القصائد الجاهلية في التطرق لموضوعات واحدة بعينها تتكرر في كل قصيدة، أمر يدل على أنها نظمت بعد نزول القرآن لا قبله.

**الأدلة الخارجية**

1ـ استهل مرجليوث مقالته بالحديث عن وجود الشعر في الجاهلية وموقف القرآن الكريم من الشعر متحدثاً عن بدء ظهوره ونشأته وآراء القدماء في ذلك.

2ـ ينتقل إلى الحديث عن حفظ هذا الشعر الجاهلي وينفي أن تكون الرواية الشفوية هي التي حفظته، ليقول انه لم تكن هناك وسيلة لحفظه سوى الكتابة، ثم يعود فينفي كتابته في الجاهلية ليؤكد انه نظم في مرحلة زمنية تالية للقرآن الكريم.

3ـ يتطرق بعد ذلك إلى الحديث عن الرواة من علماء القرنين الثاني والثالث الهجريين، فيذكر حمّاداً، وجناداً، وخلفاً الأحمر، وأبا عمرو بن العلاء، والأصمعي وأبا عمرو الشيباني وأبا إسحاق والمبرد، ثم أضاف إلى ذلك آراء هؤلاء الرواة العلماء بعضهم في بعض فقال: إن هؤلاء العلماء لم يكن يوثق بعضهم بعضاً، وقال ذلك ليزعم أن الوضع في هذا الشعر كان مستمراً.

وقد تصدى نفر من المستشرقين للحديث عن (صحة الشعر الجاهلي) وردّوا فيما كتبوا ما ذهب إليه مرجليوث وفنّدوا أدلته وافتراضاته ومنهم (شارلس جيمس لايل) في مقدمة الجزء الثاني من المفضليات، و(جورجي وليفي دلا) في مقالته (بلاد العرب قبل الإسلام) كون كان الشّعراء يتغنون به من الانتصارات القبلية التي تثير الشّحناء والتباغض وتدوينه والتفاخر بما ذكر فيه يعتبر عملا داعيا إلى الفتنة وتذكر خصال الجاهليين التي نبذها الإسلام.

أما إسهامات مرجيليوث في الشعر القديم فأهمّها: (نشر حماسة البحتري بمعاونة جاير- لندن1909 ) ونشر في مجلة الجمعية الآسيوية الشعر المنحول على السموأل 1906-1907) و (أصل الشعر العربي 1911).

***بلاشير*، روجي, ر. ل**

تطرق من خلال كتابه: ( تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي ) لصحة الشعر الجاهلي والأخبار المتعلقة به، وقال بأنَّ عملية نقله كانت شفويا حتى مرحلة التدوين.

لقد كانت دراسات بلاشير متّزنة عقلانية حيث تحدّث عن حماد الرواية وخلف الأحمر وانتحالهما وعن المفضل وأبي عمرو بن العلاء من حيث الأمانة في النقل قائلا: " نحن نشعر أحيانا بوجود الانتحال أكثر من القدرة على البرهان على وجوده.

ويرى بلاشير أنه من الضرورة أن تفرز القطع المنحولة وتستبعد التماسا للحذر، لأجل اقتناء مقطوعات وقصائد تعكس هذه الفترة العظيمة بصدق.

قضية أخرى كان لبلاشير رأي فيها وهي قضية غياب الأفكار الدينية في أشعار الجاهليين، رافضا زعم غيره بأن المسلمين تعمّدوا حذفها مؤكدا وجود بعض الظواهر والطقوس الدينية معزيا ذلك إلى احتمالين:

- أن الشاعر الجاهليّ كان قليل الاهتمام بالأمور الدينية.

- أو أنّه غير حريص أصلا على دمجها بأموره الدنيوية.

ويرى بلاشير أن قضية الانتحال غير مهمّة في حالة ما إذا كانت هذه المقطوعة تحافظ على الفكرة المتداولة للشعر الجاهليّ ولا تخرجه عن سياقه اللغوي البيئي والمجتمعي، فعوض أن تزعجنا انتحالات المنتحلين تصبح لنا مساعدا ثمينا فهي أرضيّة خصبة لنتاج شعراء حافظوا على كليشيهات الشعر الجاهليّ.

كن أول من تناول قضية الانتحال من المستشرقين هو المستشرق نولدكه سنة 1864م، وبعد ثماني سنوات تطرق للموضوع المستشرق أَلوارد في مقدمة دواوين الشعراء الستة الجاهليين، منتهياً إلى أن عدداً قليلاً من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته، مع ملاحظة وأن شكاً لا يزال يلازم هذه القصائد الصحيحة في ترتيب ألفاظها وأبياتها. وتابع كثير من المستشرقين أَلوارد في موقفه الحذر من قبول كل ما يروى للجاهليين، ومنهم موير وباسيه وبروكلمان وغيرهم.